الإعجاز الإلهي في النبات

وأثره في الدعوة إلى الله

بقلم

الدكتور

رمضان عبد المطلب خميس

مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين – القاهرة

الله سبحانه وتعالى له آيات ودلائل كثيرة ، تدل على عظمة قدرته ، وإثبات وحدانيته ، من هـــذه الآيات ما أودعها الله فى الإنسان ، وهى ما تعرف بآيات الله الإنسانية ، ومنها ما أودعها الله فى الكون وهى ما تعرف بآيات الله الكونية .

وآيات الله الكونية كثيرة : منها ما أوجدها الله فى السماء مثل : الشمس ، والقمر ، والسحاب ، والنجوم ، والمجرات والأشعة وغير ذلك الكثير .

ومنها ما أوجدها الله فى الأرض . مثل: الجبال ، والأنهار والأودية ، والنبات : الذى هو مجال هذا البحث وإذا كان القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور فإن هذا الكون وما فيه من الآيات الكونية يعتبر كتاب الله المنشور ، لأنه ممتلىء بالصفحات التى بها الدلائل على وجود الله وإعجازه فى صنعته .

وفى القرآن ما يدعو إلى البحث والتدبير فى هذه الصفحات المليئة بالدلائل على وجود الله تعالى وإعجازه فى صنعته ، فقد ورد فى القرآن الكريم آيات بينات تدل على ذلك : منها قوله تعالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »(١) .

وقوله تعالى : « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »(٢) .

---

(١) سورة يونس آية ١٠١ (٢) سورة الملك آيتا ٣ ، ٤

وفى عالم النبات والزروع يقول سبحانه « أفرأيتم ما تحرثون ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون »(١) .

والنظر والتدبر لهما أكبر الأثر فى القرب من الله سبحانه وتعالى لأنهما يقويان ويدعمان جانب البصيرة فى الإنسان ، ومن قويت بصيرته ، إزداد قربا من الله وكان فى الآخرة من الفائزين بجنة عرضها السماوات والأرض مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـــديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولأهمية النظر والتدبر فى آيات الله الكونية قمت بإعداد هذا البحث تحت عنوان :

« الإعجاز الإلهى فى النبات وأثره فى الدعوة الإسلامية »

موضحا فى هذا البحث الإعجاز الإلهى فى النبات وذلك فى نموه ونضج ثماره وتعدد أنواع هذه الثمار من حيث الطعم واللون والرائحة وغير ذلك ، وعلاقة هذا النبات بالإنسان ، فالبعض لا يرى من النبات إلا ما يستخدمه منه فى هذه الحياة من طعام وشراب فقط ويخفى عليه أن هذا النبات يدخل فى أمور لا غنى للإنسان عنها مثل استخدامه فى مجال الصحة كدواء ، وفى أمور الصناعة فى الأخشاب وفى أمور التجارة .

بل لا تقف علاقه النبات بالإنسان عند هذا الحد فى جانب الحياة الدنيا ، بل يتصل النبات بالإنسان فى مجال الترغيب والترهيب وهما من أساليب الدعوة إلى الله ، وإذا ما انتقل الإنسان من دنياه إلى أخراه امتدت العلاقة معه حتى فى دار البقاء بنعيمها أو عذابها ، بنعيمها فى الجنة

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٣ : ٦٥ .

بتوفيق الله سبحانه ورحمته ، فيكون فيها الأشجار والثمار . بجميع أنواعها وأصنافها ، أوعذابها فى النار فتكون العلاقة عن طريق شجرة الزقوم ولذا اشتمل هذا البحث على مطلبين : —

المطلب الأول :

الإعجاز الإلهى فى خلق النبات وتكوينه .

المطلب الثانى :

« أثر النبات فى الدعوة إلى الله » وبه عدة عناصر .

(١) النبات وعلاقته بالغذاء والدواء والتجارة .

(٢) النبات وعلاقته بالعبادة .

(٣) النبات وعلاقته بأسلوب الترغيب والترهيب .

(٤) النبات وعلاقته بإثبات البعث .

(٥) النبات وعلاقته بنعيم أهل الجنة .

(٦) النبات وعلاقته بعذاب أهل النار .

الإعجاز الإلهى

فى خلق النبات وتكوينه

وردت آيات قرآنية كثيرة تبين الإعجاز الإلهى فى خلق النبات وتكوينه . منها قوله تعالى :

« الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »[1].

فالله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماء على الأرض فأخرج به أنواع الثمار ، رزقا لبنى آدم ليتفكروا فى أنفسهم وفى أحوال مافوقهم وما تحتهم ويعرفوا أن هذه الثمار وسائر أنواعها لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا الصانع الحكيم سبحانه وتعالى .

ويذكر الإمام الرازى فى تفسيره لهذه الآية :

والله سبحانه وتعالى قادر على خلق هذه الثمار من غير وسائط مثل الماء والأرض لأن الثمرة لا معنى لها إلا جسم قام به طعم ولون ورائحة ورطوبة ، والجسم قابل لهذه الصفات ، وهذه الصفات مقدورة لله تعالى ابتداء ، والحكمة فى خلقها بهذه الوسائط :

إجمالا : أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وتفصيلا :

أولا : أنه تعالى إنما أجرى العادة بأن لا يفعل ذلك إلا على ترتيب وتدريج ، لأن المكلفين إذا تحملوا المشقة فى الحرث والغرس طلبا

(١) سورة البقرة آية : ٢٢

للثمرات ، وكدوا لأنفسهم فى ذلك حالا بعد حال علموا أنهم لما احتاجوا إلى تحمل هذه المشاق لطلب هذه المنافع الدنيوية فلأن يتحملوا مشاق أقل من المشاق الدنيوية لطلب المنافع الأخروية التى هى أعظم من المنافع الدنيوية كان أولى .

ثانياً : أنه تعالى لو خلقها دفعة من غير هذه الوسائط لحصل العلم الضرورى بإسنادها إلى القادر الحكيم ، وذلك كالمنافى للتكليف والإبتلاء . أما لو خلقها بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف فى إسنادها إلى القادر إلى نظر دقيق وفكر ، فيستوجب الثواب ، ولهذا قيل : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب .

وتتجلى قدرة الله تعالى فى وجود هذه الأسباب المؤدية إلى إخراج هذه الثمرات ، ففى قوله تعالى : « وأنزل من السماء ماء » يقتضى نزول المطر من السماء ، وليس الأمر كذلك فإن الأمطار إنما تتولد من أبخرة ترتفع من الأرض وتتصاعد إلى الطبقة الباردة من الهواء فتجتمع هناك بسبب البرد وتنزل بعد اجتماعها كسحاب والسماء سميت هكذا لسموها فكل ما سماك فهو سماء فإذا نزل من السحاب فقد نزل من السماء ، والأبخرة التى ترتفع من الأرض وتتصاعد إلى الطبقة الباردة من الهواء بقدرة الله تعالى ، وقول الله تعالى هو الصدق وقد أخبر أنه تعالى ينزل المطر من السماء فإذا علمنا مع ذلك أنه ينزل من السحاب فيجب أن يقال ينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض[1].

ونستنتج من ذلك أن المطر الذى ينزل من السماء إلى الأرض يمر

(١) تفسير الإمام الفخر الرازى مجلدا ج ٢ ص ١٢١ وما بعدها (بتصرف) .

بفترات تتجلى فيها قدرة الله تعالى وأن هذا المطر هو أهم الأسباب الأساسية فى وجود هذا النبات.

ومن الآيات القرآنية التى تبرز الإعجاز الإلهى فى خلق النبات وتكوينه : قوله تعالى :

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[1] .

وفى هذه الآية أن الماء سبب فى إخراج النبات وقد وضحت هذا السبب بالآية السابقة ، إنما الجديد هنا فى هذه الآية والذى يبرز قدرة الله فى خلق النبات وتكوينه « مرحلة الإخضرار » .

وهـــذه المرحلة تحدث عنها الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره « الجواهر » قائلا : إن هذا الضوء الذى عرفته كالمهندس الذى يقوم بشئون العوالم النباتية ، وهذا المهندس تحته عاملان يعملان بإشرافه فأحدهما : الورق ، والثانى : الجذور والنبات ليس له جوف لهضم غذائه ولا له قلب لإدارة سائلاته فى كل أقسامه كما للحيوان بل يمص غذاءه من التراب بواسطة جذوره ومن الهواء بواسطة أوراقه وبها أيضاً يدفع النبات مالا ينفعه إلى الخارج ، وفى الماء مواد غازية ومعدنية مذوبة فيه فتى حملت الجذور الماء الذى امتصته صعد بما معه من المواد المعدنية والغازية فى أنسجة النبات إلى الأجزاء التى فوق سطح الأرض المعرضة

(١) سورة الأنعام آية : ٩٩

للهواء فيدخل الأوراق ، والجو الذى نعيش فيه يحتوى على أدخنة من الآلات البخارية وتلك الأدخنة أجزاء فحمية « الكربون » وكل أنفاس الإنسان والحيوان مشتملة على نوع من هذا الفحم أو « الكربون » وهذا الدخان المشتمل على الكربون يسير فى الجو ويصل إلى أوراق النبات .

فيمثل الغذاء الذى يدخل فى ورق النبات وهو ما يسمى « حامض الكربونيك » ، فمتى تناوله الورق واجتمع بالماء الذى امتصته الجذور يقابلهما النور فيكون منهما معا « النشا » المعلوم وهو الذى يذوب فى فمك إذا مضغت حبة من القمح وما بقى لوجا سميناه « المواد الشبيهة بالزلال » ثم إن الجذور إذا امتصت أكثر مما يلزم من المواد المائية تحولت بخارا فى الأوراق وتطير فى الجو فتنخفض درجة الحرارة .

ثم إن هذا النشاء المركب من الكربون والأكسوجين والايدروجين لا يتم له ذلك التركيب إلا بفعل المادة الملونة الخضراء ، وهذه المادة الملونة لا تتم إلا بفعل النور فيها بدليل أن الجذور لا تلون به لاحتجابها عن الشمس بجوهر الأرض ، وهكذا حول النور بقدرة الله تعالى : ما نتج منه من المادة الملونة الكربون والماء إلى نشاء وهذا النشاء يسير فى الخلايا ويخزن منه فى البذور ليكون غذاء فى المستقبل ومنه ما يخزن فى الجذور فى زمن الشتاء لينتفع به النبات فيما بعد وقد يتحول إلى سكر بفعل المادة الملونة أو إلى مادة زيتية أو دهنية كما هو فى بذور القطن واللوز والخروع والزيتون[1] .

وبينما تختلف النباتان اختلافات فردية بعضها عن بعض من حيث

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم / للشيخ طنطاوى جوهرى جـ ٧ ص ٨٤ (بتصرف) ط ٢ طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٠ هـ .

تعدد أنواعها وأصنافها، نجد لها بعض الصفات العامة التى تشترك فيها جميعاً فكلها مثلا تقوم بعملية التمثيل الضوئى وهنالك التشابه فى تركيب البذور والسيقات والأوراق والأزهار، وما يؤديه كل منهما من الوظائف المتماثلة فى النباتات المختلفة، وهنا لك الاستجابة الموحدة للمؤثرات الخارجية فكلها تتجه فى نموها نحو الضوء، وتموت عندما تحرم منه أو من الهواء إلى غير ذلك من الصفات العديدة التى فيها جميع النباتات.

فمن الذى قد رأوا وجد تلك القوانين العديدة التى تتحكم فى وراثة الصفات وفى نمو النبات ؟ ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعى ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو أن عناصر الطبيعة والتربة المخلوقة هى التى أنشأتها، أو نشأت هكذا بمحض المصادفة، فلا بد لنا من الإيمان بوجود خالق مبدع والتسليم بوجوده، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا[1].

ومن وجوه الإعجاز الإلهى فى خلق النبات: عملية التناسل التى أوجدها الله تعالى فيه، وفى الحقيقة أن هذه العملية أوجدها الله سبحانه وتعالى فى سائر المخلوقات لتحقيق عمارة الكون فقال تعالى «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»[2].

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم / جون كلوفر . ترجمة د / عبد المجيد سرحان راجعه وعلق عليه د / محمد جمال الدين الفندي ص١٢٣ (بتصرف) نشر مؤسسة الحلبي وشركاه ط ٣ يونيه ١٩٦٨ م.

(٢) سورة الذاريات آية ٤٩.

فبالنسبة إلى التناسل فى عملية النبات تحدثت عنه أكثر من آية فى القرآن الكريم منها قوله تعالى:

«وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى»[1].

وقوله تعالى:

«سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»[2].

وفى هذه العملية التى هى التناسل فى النبات جاء فى تفسير الجوهرى: أن تقسيم النبات باعتبار التذكير والتأنيث جاء من معنى قوله تعالى:

«انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»[3].

فالنظر إلى الثمر وزهره أنتج التقسيم. واعلم:—

أن الزهرة كزهرة القطن مثلا يكون لها غلاف على لون الخضرة كلون الورق ويسمى هذا عند علماء النبات «كأساً»، وغلاف فى داخله ملون باللون الأصفر أو الأبيض أو الأحمر ويسمى «تويجاً» تصغير تاج فكأنه لجماله تاج الملوك وفى داخل هذين الغلافين يكون التزاوج بين الذكران والإناث كما يكون بين الزوجين فى أنواع الحيوان والإنسان سواء بسواء.

---

(١) سورة طه آية ٥٣.

(٢) سورة يس آية ٣٦.

(٣) سورة الأنعام آية ٩٩.

وفى هذه الزهرة وغيرها كرات صغيرة ناعمة مستعدة لتصير برزاً متى لقحت كما جعل الله للإناث من أنواع الحيوان مواد فيها تنقلب حيواناً متى حصل اقتراب الذكران من الإناث وهذه الكرات دائماً تكون فى مركز الزهرة ، وهذا هو عضو التأنيث ويسمى « البستيل » وهو عبارة عن ثلاث أقسام :

١ — المبيض : وهو فى القاعدة وفيه الأصول الخلقية القابلة للنمو وهو كالرحم والمبيض فى الحيوان وقد يكون ذا مسكن أو عدة مساكن .

٢ — أنبوبة شعرية بها بعض طول .

٣ — الجزء العلوى : وهو كفم لتلك الأنبوبة وذلك الفم هو الذى يقبل اللقح من عضو التذكير ويوصله إلى المبيض بواسطة الأنبوبة المذكورة ، وترى فى هذه الزهرة القطنية وغيرها أيضاً عضواً أو أعضاء أخرى محيطة بذلك « البستيل » أى عضو التأنيث وتكون غالباً بينه وبين التويج .

فإذا نظرت زهرة القطن مثلا فأول ما يلقاك كأسها ثم تويجها ثم عضو التذكير . وفى الوسط تماماً عضو التأنيث الذى استعد لاستقبال اللقح من عضو التذكير الذى أحاط به التويج فتلك الورقات الجميلة الزهرية الملونة باللون البهيج فى مختلف النبات كأنها هيئة العرس والأفراح التى يقيمها الناس وملابس الزوج والزوجة أيام الزفاف مع الروائح العطرية التى تبهج القلوب وتشرح الصدور . فهذه التى يصنعها الناس عادة ويزينون العروس بالبهجة والنضارة قد خلقها الله للذكر

والأنثى من النبات[1] .

ومن وجوه الإعجاز الإلهى فى إيجاد النبات وتكوينه : توفير المناخ الجوى الملائم لوجود النبات حيث أن الفصول الأربعة (الصيف والخريف والشتاء والربيع) لها علاقة بوجود النبات ، وذلك أن المتأمل فى أحوال الشمس من إنخفاضها وارتفاعها ومن طول النهار وقصر الليل والذى يؤدى إلى وجود هذه الفصول الأربعة سالفة الذكر ، فلو كانت السنة كلها فصلا واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية ، ففى الشتاء تغور الحرارة فى الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكثف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذى به حياة الأرض وأهلها ، وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ، وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جداً فتنضج الثمار ، وهناك من الزروع ما يناسبه مناخياً الصيف مثل نبات الذرة وهناك ما يناسبه مناخياً الشتاء مثل نبات القمح ونبات الفول وعلى ذلك الكثير من أصناف النبات وأنواعه ، وكل ذلك ليس من فراغ إنما هو الدليل الواضح على أن هذا الكون يسير وفق نظام محكم وضعه صانعه وهو الله سبحانه وتعالى فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين[2] .

---

(١) انظر الجواهر فى تفسير القرآن « مرجع سابق » ، جـ ٤ ص ٩٠ « بتصرف » ، وكتاب دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة / موريس بوكاى ص ٢١٥ ط دار المعارف ١٩٧٨ م .

(١) مفتاح دار السعادة / للامام ابن القيم الجوزية حـ ١ ص ٢٠٨ (بتصرف) .

وأستنتج من هذا المطلب الأول وهو « الإعجاز الإلهى فى خلق النبات وتكوينه » مايلى : -

١ — وجود الأسباب فى خلق النبات وتكوينه مثل المطر والأرض وهذه الأسباب دليل على وجود المسبب وهو الله رب العالمين .

٢ — سنة الله فى خلقه للبقاء على النوع عن طريق التناسل والتكاثر ، وأن الله بقدرته أوجد هذه العملية فى النبات بإيجاد عضو التذكير وعضو التأنيث مع توفير المناخ المناسب لعملية التكاثر والتناسل .

٣ — إيجاد عملية التغذية فى النبات وكيف أنها تتم بقدرة الله وذلك عن طريق الورق والجذور ، ويدفع النبات ما لاينفعه من الغذاء إلى الخارج عن طريق هذه الأوراق .

٤ — وجود الأنواع المختلفة من النباتات والثمار حسب الفصول الأربعة (ربيع — صيف — خريف — شتاء) كل على حسب المناخ الملائم لمعيشته وكل ذلك وفق تقدير العزيز العليم سبحانه وتعالى .

المطلب الثانى

أثر النبات فى الدعوة إلى الله

وهذا المطلب كما أشرت سابقا يحتوى على العناصر الآتية :

١ — النبات وعلاقته بالغذاء والدواء والتجارة .

٢ — النبات وعلاقته بالعبادة .

٣ — النبات وعلاقته بأسلوب الترغيب والترهيب .

٤ — النبات وعلاقته بإثبات البعث .

٥ — النبات وعلاقته بنعيم أهل الجنة .

٦ — النبات وعلاقته بعذاب أهل النار .

وهذه العناصر التى أجملتها فى هذا المطلب ، أذكرها بشىء من التفصيل : كما يلى —

١ — النبات وعلاقته بالغذاء والدواء والتجارة :

وردت آيات قرآنية كثيرة توضح هذه العلاقة فبالنسبة إلى الغذاء : أذكر منها قوله تعالى :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم »(١) .

---

(١) سورة عبس : الآيات ٢٤ — ٣٢

ويوضح هذه العلاقة الشيخ سيد قطب فى تفسيره « الظلال » :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه » .. الصق شىء به ، وأقرب شىء إليه وألزم شىء له ، لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المكرر ، لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة ، فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب ، وهى معجزة كمعجزة خلقه ونشأته ، كل خطوة من خطواتها بيد القدرة التى أبدعته .

كما قال تعالى : « إنا صببنا الماء صبا » وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة ، فى أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة ، فهى حقيقة يخاطب بها كل إنسان ، فأما حين تقدم الإنسان فى المعرفة .

فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهداً من هذا المطر الذى يتكرر اليوم ويراه ، وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التى يتبخر ماؤها ثم ينزل فى صورة مطر ، أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولا فى السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا !

وقوله تعالى : « فأنبتنا فيها حبا » ويشمل جميع الحبوب ، ما يأكله الناس فى أية صورة ، وما يتغذى به الحيوان فى كل حالة من حالاته ، « وعنبا وقضبا » والعنب معروف ، والقضب هو : كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى « وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا » والزيتون والنخل معروفات والحدائق جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها و « غلبا » جمع غلباء ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار ، والفاكهة من ثمار الحدائق و « الأب » أغلب الظن الذى ترعاه الأنعام ، وهذه قصة الطعام كلها من إبداع اليد

التى أبدعت الإنسان ، وليس فيها للإنسان يد يدعيها ، فى أية مرحلة من مراحلها .. حتى الحبوب والبذور التى قد يلقيها هو فى الأرض .. أنه لم يبدعها ، ولم يبتدعها ، والمعجزة فى إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه ، والتربة واحدة بين يديه ، ولكى البذور والحبوب متنوعة وكل منها يؤتى أكله فى القطع المتجاورات من الأرض « متاعا لكم ولأنعامكم » إلى حين ينتهى فيه هذا المتاع الذى قدره الله حين قدر الحياة[1] .

هذا بالنسبة لاستخدام الإنسان للنبات كغذاء وبالنسبة إلى العلاقة كدواء : فقد أفادت السنة النبوية من الشريفة أن هناك بعض أنواع النبات يستخدم كعلاج للإنسان من الأمراض وذلك مثل الحبة السوداء : فعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « إن هذه الحبة السوداء شفاء كل داء إلا السام »[2] .

قال ابن شهاب والسام : الموت ، وقال الإمام ابن حجر العسقلانى فى شرحه .

وقد ذكر الأطباء فى علاج الزكام العارض معه عطاس كثير وقالوا

---

(١) فى ظلال القرآن / للشيخ سيد قطب جـ ٦ ص ٣٨٣٢ وما بعدها (بتصرف) دار الشروق الطبعة الرابعة والعشرون ١٤١٥ هـ — ١٩٩٥ م وانظر تفسير التحرير والتنوير / للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ٣٠ ص ١٣١ ومابعدها الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ١٠ / ١٤٣ كتاب الطب باب الحبة السوداء ، وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحة ١٧٣٥/٤ كتاب السلام باب التداوى بالحبة السوداء عن أبى هريرة رضى الله عنه .

تقلى الحبة السوداء ثم تدق ناعما، ثم تلتفع زيت ثم يقطر منه فى الأنف ثلاث قطرات، ومعنى شفاء من كل داء أنها لاتستعمل فى كل داء صرفا بل ربما استعملت مفردة، وربما استعملت مسحوقة وغير مسحوقة وربما استعملت أكلا وشربا وسعوطا وضمادا وغير ذلك، وقيل إن قوله « من كل داء » تقديره يقبل العلاج بها، وقال أبو بكر بن العربى: العسل عند الأطباء أقرب إلى أن يكون دواء من كل داء من الحبة السوداء، ومع ذلك فإن من الأمراض ما لو شرب صاحبه العسل لتأذى به، فإن كان المراد بقوله تعالى: « فيه شفاء للناس »(٢)، الأكثر الأغلب فحمل الحبة السوداء على ذلك أولى.

وقال غيره كان النبى ﷺ يصف الدواء بحسب ما يشاهده من حال المريض فلعل قوله فى الحبة السوداء وافق مرض من مزاجه بارد فيكون معنى قوله « شفاء من كل داء » أى من هذا الجنس الذى وقع القول فيه والتخصيص بالحيثية كثير شائع.

وقد أشار الإمام ابن القيم فى كتابه مفتاح السعادة بقوله ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التى يستخرجها الإنسان مما تنبت الأرض بقدرة الله سبحانه، وما خص به كل واحد منها فمن هذه العقاقير ما يحلل الأورام، ومنها ما يستخرج به الفضول الغليظة القاتلة التى لو احتبست لأضرت الإنسان، وغيره يخفف البدن إذا وجد الثقل، وهذا يجلو البلغم وهذا يحد البصر، وهذا يسكن هيجان الباءة، وهذا يهيجها، وهذا يبرد الحرارة ويطفئها، وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة، وهذا

(١) سورة النحل آية ٦٩

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى / لابن حجر العسقلانى جـ ١٠ ص ١١٨ (بتصرف).

يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية، وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره فيعتدلان وهذا يسكن العطش، وهذا يعطى اللون إشراقا ونضارة وهذا يزيد فى أجزاء البدن بالسمن، وهذا ينقص منها وهذا يدفع المعدة، وهذا يجلوها ويغسلها، إلى أضعاف ذلك مما لايحصيه العباد، فسبحان من جعل هذه المنافع والقوى فى هذه النباتات والحشائش، وكل هذا لولا إنعام الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه، فمن الذى فطن لها البهائم حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذى جعله يقصد ذلك النبات دون غيره؟ وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج، وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئا من النبات فتعود صحته من ألهمها ذلك؟ ومن أرشدها إليه؟ ومن دلها عليه؟ أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم؟ وتقدير عزيز عليم، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً (١).

وبالنسبة إلى النبات كتجارة وكسب ذلك بأن يقوم بعض الناس بشراء الثمار بشتى أنواعه (برتقال — تفاح — خوخ — رمان — مانجو — برقوق) عن طريق شراء حدائق مثمرة جملة واحدة ثم يقومون ببيعها فى أسواق الجملة، ويقوم أصحاب أسواق الجملة بتوزيع هذه الثمار على المحلات الخاصة أو تجار التجزئة الذين يقومون ببيع الثمار لجمهور الناس، وكذلك تجار الحبوب (قمح — ذرة — شعير — حلبة) وغير ذلك، ولولا النبات الذى هو نعمة من الله ما كان ذلك الكسب

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم جـ ١ ص ٢٣٣ (بتصرف).

للانسان ، وهناك وجهة أخرى تبين النبات كصناعة وذلك فى صورة أخشاب تدخل الورش ثم تشقق ويستخرج منها الأبواب والشبابيك والمقاعد وغير ذلك من المصالح التى لاغنى للانسان عنها .

وتعتبر صناعة أوراق البردى من أهم المواد المستخدمة قديما فى الكتابة المصرية ، وأوراق البردى هى التى تقابل الورق فى العصر الحديث (والذى أخذ الأخير اسمه عنها) حيث أن كلمة Paper الإنجليزية مشتقة من كلمة Papuyus التى تعنى « بردى » ونبات البردى : هو نبات مائى كان ينمو قديما بكثرة فى مستنقعات مصر ، غير أنه انقرض اليوم ، وكان يصنع الورق من ساق هـذا النبات المثلثة الشكل والتى تحتوى على لباب ليفى ذى عصارة لزجة جداً وكان الورق يصنع بتقطيع هذا اللباب إلى شرائح رقيقة ، ووضع عدد من هذه الشرائح جنبا إلى جنب ، ثم وضع طبقة ثانية فوق الطبقة الأولى بحيث تكون متقاطعة معها ، وبعدئذ تلصق الطبقتان بضغطها لأن لزوجة العصارة ، كانت تكفى بعد إضافة قليل من ماء النيل لتأدية الغرض .

وهكذا تتكون ورقة تظهر الألياف على أحد جانبيها رأسية وعلى الجانب الآخر أفقية ثم تطرق الورقة بمطرقة خشبية لتسوية الألياف الخشنة ، وبذلك تصبح صالحة للكتابة عليها[1] وهذه بإيجاز هى علاقة النبات بالإنسان كغذاء ودواء وتجارة .

---

(١) مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٨ هـ ، ديسمبر ١٩٩٧ م حـ ٨ السنة السبعون تحت عنوان « مصر وأوراق البردى » د / محمد عبد الحكيم محمد ص ١٣٠٩ وما بعدها (بتصرف) .

٢ — علاقة النبات بالعبادة :

وتتضح هذه العلاقة فى الصلاة والزكاة فبالنسبة إلى الصلاة تتضح علاقة النبات بها فى حديث السواك الذى يقول فيه الرسول ﷺ « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة »[1] وبالنسبة إلى الزكاة نجد أن أحد أنواعها « الزروع والثمار » وقد ذكر الله هذا النوع فى القرآن :

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[2] .

وقد ذكر الله زكاة الزروع والثمار بطريقة مجملة وجاءت السنة ففصلت ذلك المجمل فعن النصاب الذى يخرج منه الزكاة :

ذكر البخارى تحت باب « ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة » حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا مالك قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ليس فيما أقل من خمسة أوسق صدقة »[3] .

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ٢/٣٧٤ كتاب الجمعة باب السواك يوم الجمعة عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ١/٢٢٠ كتاب الطهارة باب السواك عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سورة الأنعام آية ١٤١

(٣) صحيح البخارى مجلد ١ حـ ٢ ص ٣٧٦

وعن القيمة من هذا النصاب فقد ذكر البخارى أيضا تحت باب « العشر فيما يسقى من ماء السماء وبالماء الجارى » : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا عبد الله بن وهب قال أخبرنى يونس بن زيد عن الزهرى عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقى بالنضح نصف العشر »[1] .

وبالنسبة إلى النصاب كما جاء فى الحديث خمسة أوسق ، والأوساق جمع وسق بفتح الواو وكسرها ، والوسق ستون صاعا والصاع أربعة أمداد فالخمسة أوساق ثلثمائة صاع والمد رطل وثلث[2] .

والصاع : قدح وثلث فيكون النصاب خمسين كيلة ، فإن كان الخارج لا يكال فيقوم وزنه مقامه فقد قال ابن قدامة : ونصاب الزعفران والقطن ، وما ألحق بهما من الموزونات . ألف وستمائة رطل بالعراقى فيقوم وزنه مقامه[3] .

وبالكلام عن زكاة الزروع والثمار بإيجاز تتضح علاقة النبات بالعبادة .

٣ ــ النقطة الثالثة : علاقة النبات بأسلوب الترغيب والترهيب :

ويعتبر الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة إلى الله وهو واضح

---

(١) صحيح البخارى مجلد ١ حـ ٢ ص ٣٧٥

(٢) سبل السلام / للصنعانى حـ ٢ ص ٢٢٩ مكتبة الإيمان المنصورة أمام جامعة الأزهر .

(٣) فقه السنة / للشيخ سيد سابق حـ ١ ص ٢٩٩

من قصة نوح عليه السلام فى القرآن الكريم ، فقد استخدم عليه السلام « النبات » فى مجال الترغيب وقد أخبرنا الله عن ذلك بما جاء على لسان نوح عليه السلام :

« فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »[1] .

يقول الإمام الرازى : واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة ولذلك قال تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب »[2] فلما جرم أعلمهم الله تعالى هنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر فى الآخرة الخصب والغنى فى الدنيا ومن الأشياء التى وعدهم من منافع الدنيا فى هذه الآية « ويجعل لكم جنات » أى بساتين[3] .

وكما جاء فى الظلال :

ومع الدأب على الدعوة وتحين كل فرصة ، اتبع نوح عليه السلام كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ثم زواج بين الإعلان والإسرار تارة وفى أثناء ذلك كله أطعمهم فى خير الدنيا والآخرة أطعمهم فى الغفران إذا استغفروا ربهم ، وأطعمهم فى الرزق الوفير من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها وهى المطر الغزير ، الذى تنبت به الزروع ، وتسيل به الأنهار وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق ، وهذه قاعدة يقررها القرآن فى مواضع متفرقة منها قوله تعالى :

---

(١) سورة نوح الآيات من ١٠ ـ ١٢

(٢) سورة الصف آية ١٣

(٣) تفسير الفخر الرازى مجلد ١٥ حـ ٣٠ ص ١٣٩ طبعة دار الفكر .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[1] .

وجاء فى موضع : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم »[2] وهى قاعدة صحيحة نقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ، كما أن الواقع العملى يشهد بتحقيقها على مدار القرون ، وما من أمة قام فيها شرع الله واتجهت إتجاهاً حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله ، إلا فاضت فيها الخيرات ولقد نشهد فى بعض الفترات أمما لا تتقى الله ولا تقيم شريعته وهى مع هذا موسع عليها فى الرزق ، ممكن لها فى الأرض ولكن هذا إنما هو الإبتلاء . ثم هو بعد ذلك رخاء ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعى والإنحدار الأخلاقى ؛ أو الظلم والبغى وإهدار كرامة الإنسان[3] .

ومما سبق يتضح استخدام النباب فى أسلوب الترغيب وذلك بوفرته وكثرته وتنوع أصنافه إذا ما كان الإلتزام بطاعة الله والمداومة على الاستغفار ، وإذا ما وجد النبات بدون ذلك فهو على سبيل الاستدراج كما قال تعالى : « وأملى لهم أن كيدى متين »[4] .

---

(١) سورة الأعراف آية ٩٦

(٢) « المائدة آيتا ٦٥ ، ٦٦

(٣) فى ظلال القرآن / للشيخ سيد قطب حـ ٦ ص ٣٧١٣ (بتصرف) دار الشروق ط ١١ سنة ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

(٤) سورة القلم آية ٤٥

وقد جاء النبات فى القرآن بأسلوب الترهيب وذلك كما فى قصة أصحاب الجنة وهذا على سبيل المثال لا الحصر فجاء قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إن كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »[1] .

ومن خلال هذه القصة يتضح مدى استخدام القرآن لأسلوب الترهيب عن طريق النبات وهو المتمثل فى الجنة وهو البستان وعاقبة أمر أصحاب الجنة عندما أصروا على حرمان المساكين من حق الله فى هذا البستان ، وقد ذكر الشيخ / سيد قطب فى ظلاله : وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة ولكن السياق القرآنى يكشف عن ماوراء حوادثها من فعل الله وقدرته ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده ومن خلال نصوصها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها وتصورها بأهل الريف البسطاء السذج ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة الذين كانوا يعاندون ويجحدون ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد إنما هى أقرب إلى السذاجة والبساطة ، ها نحن أمام أصحاب الجنة ، جنة الدنيا لا جنة

---

(١) سورة القلم الآيات من ١٧-٣٢

الآخرة وها هم أولاء ليبيتون فى شأنها أمرا لقد كان للمساكين حظاً من ثمرة هذه الجنة كما تقول الروايات على أيام صاحبها الطيب الصالح ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن وأن يحرموا المساكين حظهم ، فلننظر كيف تجرى الأحداث إذن ! لقد اتفقوا على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين وأقسموا على هذا وعقدوا النية عليه وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه فلندعهم فى غفلتهم أو فى كيدهم الذى بيتوه ولننظر ماذا يجرى من ورائهم فى بهمة الليل وهم لا يشعرون وأن الله ساهر لا ينام كما ينامون وهو يدبر لهم غير ما يدبرون جزاء على ما بيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير وبخل بنصيب المساكين المعلوم إن هناك مفاجأة تتم فى خفية وحركة لطيفة كحركة الأشباح فى الظلام والناس نيام « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

فلندع الجنة وما ألم بها مؤقتا لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون هاهم يصحون مبكرين كما دبروا وينادى بعضهم بعضا لينفذوا ما اعتزموا « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » أى يذكر بعضهم ويوصى بعضهم بعضا ثم يمضى السياق فى السخرية منهم فيصورهم منطلقين يتحدثون فى خفوت زيادة فى إحكام التدبير « ليجمعوا الثمر كله لهم ويحرموا منه المساكين » فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » .

ثم يقول صاحب الظلال : وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرأه نعلم ما لا يعلم أصحاب الجنة من أمرها أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها فى الظلام فتذهب بثمرها كله ورأيناها كأنما هى

مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفى ! فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون ، إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين : « وغدوا على حرد قادرين » ! أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان ... حرمان أنفسهم على أقل تقدير ! ! وها هم أولاء يغاجأون ، فلننطلق مع السياق ساخرين ونحن نشهدهم مغجوئين : « فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار ، فقد ضللنا إليها الطريق ! .. ولكنهم يعودون فيتأكدون : « بل نحن محرومون » ، وهذا هو الخبر اليقين ! والآن وقد حاقت عاقبة بهم المكر والتبييت ، وعاقبة البطر والمنع ، ويتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم ، ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد فى رأيه ولم يصر على الحق الذى رآه فناله الحرمان كما نالهم ، ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه : « قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون » والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الآوان « قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » وكيف يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين ، هاهم يصنعون : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » ثم هاهم يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة عسى أن يغفر الله لهم ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير : قالوا يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون » ، وقيل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » أى وكذلك الابتلاء بالنعمة ، فليعلم المشركون أهل مكة « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » ولينظروا ماذا وراء الابتلاء .. ثم ليحذروا ما هو أكبر من

ابتلاء الدنيا وعـذاب الدنيا : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »[1] .

وهكذا يتضح مدى استخدام النبات فى الترغيب والترهيب وهما من أساليب الدعوة إلى الله عز وجل .

٤ — علاقات النبات بإثبات البعث : واستخدام القرآن للنبات كدليل على البعث جاء فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم ، أذكر من هذه المواضع قولة تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا »[2] وقوله تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير »[3] .

وأتناول هذه الآية الأخيرة من التوضيح لكى أثبت أن النبات ذكر فى الآية كدليل على صحة البعث ، وقد ذكر الإمام الرازى بقوله : اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم فى إثبات الحشر والنشر وذمهم

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ٣٦٦٥ وما بعدها « بتصرف » .

(٢) سورة الكهف آية ٤٥

(٣) « الحج آية ٥ ، ٦

عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين :

أحدهما : الاستدلال بخلقه الحيوان أولا (وليس هـذا مجال البحث هنا) .

الوجه الثانى : الاستدلال بحال خلقه النبات على ذلك وهو قوله تعالى « وترى الأرض هامدة » وهمودها : يبسها وخلوها من النبات والخضرة « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » أى تحركت بالنبات وانتفخت ، أما قوله : « وأنبتت من كل زوج بهيج » فهو مجاز لأن الأرض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك .

وقوله : « من كل زوج بهيج » من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرث ، والبهجة : حسن الشىء ونضارته والبهيج بمعنى المبهج وهو الشىء المشرق الجميل ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما النتيجة والتى منها « وأنه يحيى الموتى » فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات[1] .

وبهذا يتضح لنا أن النبات ذكره الله فى القرآن الكريم مستدلا به على صحة البعث والنشور ، وهذا بطبيعة الحال يجعل المؤمن يصدق بذلك اليوم الأخروى الذى يجمع الله فيه الخلائق للعرض والحساب ، وهو فى نفس الوقت إقامة للحجة على منكرى البعث والحساب يوم القيامة .

٥ — علاقة النبات بنعيم أهل الجنة :

وبالنسبة إلى علاقة النبات بنعيم أهل الجنة فهى مذكورة فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا

(١) تفسيره الإمام الرازى ج ١٢ ص ١٠

الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون »[١] .

وقوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة زوجان »[١] وقوله تعالى : « فيها فاكهة ونخل ورمان »[٢] وقوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة »[٣] .

وقوله تعالى : « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا »[٤] وقوله تعالى : « إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا »[٥] .

فهذه الآيات وصفت الجنة وثمارها ، وإن الألوان الزاهية التى اصطبغت بها أوصاف الجنة تغرى بالزاد المقرب إليها ، وتجعل العاقل يستكثر منه ويدخر ، وكل هذه الأنواع من الفواكه والثمار التى فى الجنة يجعلها أمنية المتقين ومستقر الركب المرتحل بعد سفر طويل[٦] وأتناول من بين الآيات السابقة قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رلاقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا

(١) سورة البقرة آيه رقم ٢٥
(٢) سورة الرحمن آية رقم ٥٢ .
(٣) نفس السورة آية رقم : ٦٨ .
(٤) سورة الواقعة الآيات من ٢٧ : ٣٣ .
(٥) سورة الإنسان آية رقم : ١٤ .
(٦) سورة النبأ آية رقم ٣١ : ٣٢ .
(٧) مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ٣١٤ (بتصرف) ط ١٣٩٦ ٤ هـ — ١٩٧٦ م مطبعة حسان نشر دار الكتب الحديثة .

الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » الآية أوضح بما يدل منها على علاقة النبات بأهل الجنة .

والآية كما ذكر الشيخ سيد قطب فى ظلال القرآن : بها ألوان من النعيم يستوقف النظر عندها — إلى جانب الأزواج المطهرة — تلك الثمار المتشابهة . التى يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل — أما ثمار الدنيا التى تشبهها بالإسم أو الشكل ، وإما ثمار الجنة التى رزقوها من قبل — فربما كان فى هذا التشابه الظاهرى والتنوع الداخلى مزية المفاجأة فى كل مرة . . وهى ترسم جوا من الدعابة الحلوة ، والرضى السابغ ، والتفكه الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفى كل يتكشف التشابه الظاهرى عن شىء جديد ! وهذه آثار صنعته وآيات قدرته ! »[١] .

وأستنتج من ذلك أن هذه الثمار التى كانت مع المؤمنين فى دار الدنيا واتقوا الله فيها باخراج حق الله منها للفقراء والمساكين واستخدموا نعمة الثمار فى القرب من المنعم ، كانت لهم ثمار الجنة المذكورة فى الآية سالفة الذكر . بل قد ورد فى السنة المطهرة ما يشير إلى هذه العلاقة .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها »[٢] . وبهذا الحديث الشريف مع الآية السابقة يتضح مما لايدع مجالا للشك : علاقة النبات والثمار والفاكهة بأهل الجنه ، ونسأل الله أن يوفقنا إلى العمل الذى يكون سببا لدخول هذه الجنة والأكل من ثمراتها . إن شاء الله

(١) فى ظلال القرآن / للشيخ سيد قطب جـ١ ص ٤٩ .
(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحة ٤/٢١٧٥ — ٢١٧٦ كتاب الجنة ط عيسى الحلبى تحقيق محمد فؤاد .

٦ — النبات وعلاقته بعذاب أهل النار : —

وكما خلق الله الجنة لمن آمن به وأطاعه ، خلق الله النار وذلك من مقتضى عدله تبارك وتعالى . لأن العالم يتنازع فيه الخير والشر ، والشر ربما يتغلب على الخير ، وفى الناس الأخيار والأشرار وقد يتغلب أهل الشر على أهل الخير ، وعدل الله يوجب أن تكون العاقبة للأخيار ، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، والله تبارك وتعالى جعل الخير والشر لحكمة أرادها ليبتلى الإنسان إما شاكرا وإما كفورا ، وأنه لم يخلق عبثا ، بل إنه مسئول عن نفسه إن خيرا فخير وإن شرا فشر[1] .

وكما استخدم الإنسان الجاحد لنعمة الله « النبات فى الدنيا دون أن أن يشكره عليها ، واتخذها غاية لا وسيلة ، كانت له فى الآخرة النهاية المؤلمة حيث جعلها الله بقدرته طعاما له فى النار ، وهذا ما ذكره الله فى قوله تعالى :

« إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم »[2] ويخبر الله تعالى فى هذه الآيات عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه بأن يكون طعامهم فى النار من شجرة الزقوم ، وشجرة الزقوم كما يقول القرطبى فى تفسيره : هى الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسماها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم

---

(١) معالم الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى د / خليفة حسين العسال ص٧٩ « بتصرف » ط ١ ، ١٤٠٩هـ — ١٩٨٨م نشر دار الطباعة المحمدية القاهرة .

(٢) سورة الدخان الآيات ٤٣ : ٤٦ .

كما يغلى الماء الحار وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب[1] .

وبذلك يتبين لنا هذه العلاقة بين النبات المتمثل فى شجرة الزقوم وبين أهل النار « أعاذنا الله منها » .

وقد وردت بعض الأحاديث النبوية التى تشير إلى هذه العلاقة منها قوله ﷺ :

« لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معا يشهم فكيف بمن يكون طعامه ؟ »[2] .

والحديث مع الآية السابقة يوضحان علاقة النبات بأهل النار .

ونسأل الله عز وجل أن يجعلنا مع عباده المؤمنين الذين لهم الحظ الوافر بتناول الثمرات التى هيأها الله فى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) تفسير الإمام القرطبى جـ ٩ ص ٥٩٦٩ .

(٢) أخرجه الإمام الطبرانى فى المعجم الكبير ١١ / ٦٨ رقم ١٠٦٨ وأخرجه الإمام الترمذى فى سننه ٤ / ٧٠٦ — ٧٠٧ كتاب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار عن ابن عباس وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

ثبت المراجع

١) القرآن الكريم .

٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ط دار الشعب نشر دار الريان للتراث .

٣) فى ظلال القرآن / للأستاذ سيد قطب ط ١١ س ١٤٢٠ هـ - ١٩٨٢ م دار الشروق .

٤) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم / للأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ط ٢ س ١٣٥٠ هـ ط مصطفى البابى الحلبى .

٥) تفسير التحرير والتنوير/للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١٩٨٤م الدار التونسية للنشر .

٦) لسان العرب لابن منظور ط دار الفكر ط ١ س ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

٧) القاموس المحيط للفيروزآبادى نشر دار الفكر بيروت س ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

٨) مفتاح دار السعادة / لابن القيم الجوزية نشر دار الكتب العلمية بيروت .

٩) الله يتجلى فى عصر العلم / ترجمة د / عبد المجيد سرحان ط ٣ مؤسسة الحلبى وشركاه ١٩٦٨ م .

١٠) الإسلام فى عصر العلم / محمد أحمد الغمراوى مطبعة السعادة نشر دار الكتب الحديثة .

١١) دارسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة / موريس بوكاى ط دار المعارف ١٩٧٨ م .

١٢) المعجم الكبير للإمام أبى القاسم الطبرانى ط ٢ تحقيق حمدى السلفى .

١٣) صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج ط عيسى الحلبى محمد فؤاد عبد الباقى .

١٤) سنن أبى داود / للإمام سليمان بن داود بن الأشعث ط دار الريان .

١٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى / للإمام ابن حجر العسقلانى ط ٢ المطبعة المصرية نشر دار إحياء التراث العربى بيروت ١٤٠٢ هـ .

١٦) مع الله « دراسات فى الدعوة والدعاة » / للشيخ محمد الغزالى ط ٤ مطبعة حسان نشر دار الكتب الحديثة ١٣٩٦ هـ-١٩٨٦م.

١٧) سبل السلام / للإمام الصنعانى نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة .

١٨) فقه السنه / للشيخ سيد سابق نشر مكتبة المسلم ١٣٦٥ م .

١٩) معالم الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى د / خلفية حسين طبع دار الطباعة المحمدية سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م .

٢٠) مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٨ هـ ديسمبر ١٩٩٧ م ج ٨ السنة السبعون .

وبالله التوفيق